

## البارونة فون كريدر

### والمعاهدة المقدسة

كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر عصراً عجيباً حافلاً بمختلف النزعات والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ فهو عصر فولتير وروسو ، وهو عصر ازدهار الجمعيات السرية من البناء الحر ( الماسونية ) وغيرها ، وعصر الدعوات السرية الغامضة ، والدعاة السريين الذين تملأ سيرهم العجيبية صحفاً ممتعة أمثال البارون فون اوفنباخ ( يعقوب فرنك ) ، والكونت سان جرمان ، وكاليوسترو وغيرهم ؛ وهو أخيراً عصر الثورة الفرنسية التي دكت صروح المجتمع الفرنسي القديم ، وكانت فاتحة عصر جديد في حياة فرنسا وحياة القارة الأوربية .

في ظل هذا المجتمع الذي تهبّ عليه ربح الغموض والخفاء ويحدوه شغف التطلع إلى المجهول والحارق ، نجد المزاغم والدعوات السرية والأساطير الدينية تتمتع بنفوذ مدهش ، ولا يقف أثرها عند جمهور الكافة بل يتعداه في أحيان كثيرة إلى القصور والحكومات ، فيوجه أعمالها ، ويطلعها بطابع خاص .

وتقدّم إلينا صحف هذا العصر أمثلة عدة من هذه الشعوذة الدينية أو للسياسية . وربما كان من أغربها وأعجبها جميعاً مثل البارونة فون كريدر التي استطاعت بتأثيرها الروحي المدهش أن تسيطر حيناً على عقل ملك من أعظم ملوك عصره ، وأن تنفذ بوساطته إلى معترك الحياة السياسية الدولية العليا ، وأن تؤثر في توجيهها من وراء ستار .

كانت البارونة فون كريدر<sup>(1)</sup> ، واسمها العذرى بربارا يوليانا فتنجهرف ،

(1) Von Krüdener .

سيدة من الارستقراطية الألمانية الروسية : ولدت في مدينة ريجنا بمقاطعة  
ليثونيا في سنة ١٧٦٤ ؛ وكان أبوها هرمان فون فتنجهوف ضابطاً كبيراً في  
جيش الإمبراطورة كاترين الثانية ، ومستشاراً للمقاطعة ، وكان سيداً واسع الثراء .  
ونشأت يوليانا نشأة أرستقراطية بين مظاهر النعماء والترف مع عدة من الإخوة  
والأخوات ، وتلقت من ألوان التربية ما كان يتلقاه بنات الأسر الشريفة في  
هذا العصر : اللغة الفرنسية وشيئاً من الموسيقى والتطريز وبعض المعلومات  
العامة . وما كادت تبلغ الثامنة عشرة وتبدو في ذروة جمالها وسحرها حتى  
خطبها البارون بوركهارت فون كريدنر ، وهو أرمل في الرابعة والثلاثين من  
عمره ، وتم الزواج على الأثر . وكان البارون من رجال السلك السياسي ، كثير  
الانتران والتحفظ . وكانت البارونة الفتية من جانبها كثيرة الخفة والمرح ،  
تعشق السرور والبهجة ، وتشغف بالظهور والحفلات ، ويطربها المديح والغزل ؛  
وكان هذا التباين في الخلال يثير بين الزوجين كثيراً من الخلاف والسكر . ولم  
يمض عام وبعض عام حتى رزق الزوجان بابن سمي پول . ورقى البارون في الوقت  
نفسه إلى مرتبة سفير وأرسل إلى البندقية ، ثم نقل إلى كوينهاجن سنة ١٧٨٦  
وكانت البارونة خلال ذلك عرضة لبعض الآلام النفسية والعصبية التي تزداد  
على كراياها . وفي سنة ١٧٨٧ وضعت ابنة سميت جوليت وعلى أثر ذلك تفاقمت  
آلامها العصبية ، ونصح لها الأطباء بالسفر إلى الجنوب لتتجع الصحة والعافية ،  
فزلت على نصيحهم وسافرت مع ابنتها الطفلة وابنة زوجها صوفى .  
ووصلت إلى باريس في ربيع سنة ١٧٨٩ وقت اجتماع نواب الطبقات ، وكانت  
طلائع الثورة الفرنسية قد أخذت تبدو في الأفق ؛ ثم سافرت في العام التالي  
إلى الجنوب واستقرت بمدينة مونبلييه ، وهناك تعرفت بضابط شاب يدعى  
شارل دي فرانجيل ؛ وكانت البارونة يومئذ في السادسة والعشرين من عمرها ،  
وافرة الشباب والسحر ، فهام بها الضابط الفتى وهامت به حتى إنها لما عادت إلى  
كوينهاجن عاد معها العاشق المقتون . وكان منظرهما غريباً حينما تقدمت البارونة  
إلى زوجها تقص عليه قصة حبها وتنبئه بأن قلبها لم يعد ملكاً له ، فاستمع  
البارون في حلم وأناة ولم يبد أكثر انثاء لهذا الحدث الغرامي ، ولكنه لم يرتض  
الطلاق ، وآثر أن يعقد مع البارونة نوعاً من الوفاق الحر ؛ وسهل عقد هذا  
التراضى رحيل الضابط العاشق ليلحق بفرقة . ولكن البارونة رفضت أن تبقى

إلى جانب زوجها في كوينهاجن وعادت إلى التجوال والسفر، فزارت ريجما ويطرسبرج ويزلين وسويسرة، ولم تقبل أن تعود إلى زوجها إلا حينما عين في سنة ١٧٩٨ سفيراً في برلين، فصحبته إلى العاصمة البروسية، ولكنها لم تلبث أن سئمت برود المجتمع البروسي وتحفظه، وضاعت حياة البذخ نفقاتها وديونها، ثم تخرج الموقف بمقتل القيصر بول، وقد كان البارون يتمتع بعطفه وحمايته؛ فاضطربت أحوال البارون، ولم تضرب البارونة على البقاء في هذا الجو الكدر، فغادرت زوجها إلى الجنوب لتقضى الشتاء، وشاء القدر ألا ترى زوجها بعد ذلك لأنها لبثت هذه المرة بعيدة عنه حتى توفي في صيف سنة ١٨٠٢ دون أن يراها.

٢

في ذلك الحين كانت البارونة تعيش في باريس في جو من المرح وتستقبل في بهوها الأنيق عليّة القوم؛ وكان يحذوها عندئذ شغف بالأدب والكتابة، ولها صلات وثيقة بأكابر الكتاب والأدباء، وكان شاتوبريان وغيره من أساتذة العصر في مقدمة أصدقائها وزوارها. وقد عرضت عليهم قصة وضعتها بعنوان «فاليري» وهي قصة عاطفية تصف فيها طرفاً من حياتها وعواطفها في شخص بطلتها، فشحجوها على نشرها. وبالرغم من أن البارونة كانت قد بلغت يومئذ السادسة والثلاثين من عمرها، وأخذ سحرها يذبل ويتضاءل، فإنها كانت تشغف بالمديح والغزل، وتلمس كل سبيل للشهرة ولفت النظر. وقد قال عنها سانت بييف بهذه المناسبة: «إنها كانت تشعر بحاجة كبرى لأن يهتم العالم بها. الكبرياء... الكبرياء دائماً.»

وفي سنة ١٨٠٤ عادت البارونة إلى وطنها ليثونيا. وهنا وقع لها حادث عجيب كان سبباً في تغيير مجرى حياتها إلى وجهة لم تكن تتصورها. ذلك أن سيداً من أصدقائها كان ذات يوم يهتم بتحياتها، فسقط ميتاً عند قدميها، فارتاعت البارونة، وتفاقت اضطرابات العصية، واستحالت إلى نوع من الهيام الديني؛ وكان صانع أحذيتها رجلاً مشعوذاً من جمعية «إخوان موراثيا» الدينية؛ فلقنها التوجيهات الأولى، وأضحت منذ ذلك الحين تستمع إلى كل دجال ومشعوذ. وزارت البارونة مدينة كينجزبرج، وهناك حظيت برؤية الملكة لويزة

ملكة بروسيا ومحادثتها . وكان ملك بروسيا فريديريك ولهم الثالث ، وزوجه الملكة لويزة يقيمان في كينجزبرج منذ هزيمة ينسا ، وسقوط بروسيا صريعة الغزو الفرنسي .

ولقيت البارونة في الوقت نفسه مشعوذا يدعى آدم ميل يزعم أن السيد المسيح كلفه برسالة لدى الملك فريديريك ولهم ، وأن بعث المسيح قد أضحى على وشك الحدوث . وكانت نظرية البعث chiliasm وخلصتها أن المسيح سيبعث ويحكم العالم ألف عام ، تهب يومئذ على كثير من المجتمعات الأوروبية ، وكان نابليون يعتبر عدواً للمسيح منتهاكاً لتعاليمه ، وكان الاعتقاد سائداً بأن أوأن البعث قد اقترب . ويذكر الرهبان هذه الخرافة ويثونها في القصور بين علية القوم كما يثونها بين الفلاحين والكافة ، ويزعمون « أنه سيقوم رجل من الشمال ، من مطلع الشمس » وأن عدو المسيح سوف يهزم ، وسوف يقوم المسيح ليحكم الأرض مدى ألف عام .

كان لتلك المقابلة وتلك المزاعم أعمق الأثر في إذكاء خيال البارونة ، فعكفت من ذلك الحين على استقصاء آثار الدعوة والاتصال بالدعاة والمشعوذين في كل مكان ، فهرعت إلى كالسروه حيث كان الراهب المتصوف هينريخ شتلنج يبث دعوته ، وكان أستاذاً بارعاً في ضروب الخفاء ، وكان له نفوذ كبير في قصور بادن وستوكهلم وبطرسبرج ، فلحقها أصول نظرية البعث وخفايا العالم الآخر . ثم نعى إليها أن راهبا آخر في منطقة « الفوج » يدعى فوتين يأتي بالعجائب والمعجزات ، فقصدت إليه بمقره ببلدة سانت ماري أو مين تصحبها ابنتها چوليت وابنة زوجها صوفي وخدام روسي ، وأقامت هناك عامين . وكان فوتين مشعوذاً ودجالاً بارعاً ، وكانت تعاونه في بث تعاليمه مشعوذة بارعة تدعى ماري كورم كانت تخلب لب البارونة بأحلامها وجلساتها الروحية . وكانت البارونة تعيش في هذا الجو الذي يغمره الدجل والخفاء مضطربة الذهن هائمة النفس ، تعتقد في صدق رسالتها الجديدة ، وهي أنها سوف تكون المبشرة بعود السيد المسيح . وكانت مكاتها الاجتماعية ، وصدقاتها الوفيرة ، وفصاحتها المؤثرة ، تخلق حولها جواً من العطف والإعجاب ، وتحدث في جمهور الفلاحين والكافة أعظم الأثر .

ولما شعرت البارونة أن دعوتها أخذت تحدث أثرها ، اعترمت أن تثشى للمؤمنين بعودة المسيح مستعمرة خاصة بمعاونة فوتين ، فهرع إليها كثير من

السذح والفلاحين بعد ان باعوا كل ما لديهم ، وأنشأت هذه المستعمرة الغربية بالفعل في ١٨٠٩ في بلدة كاترنن بليزير بمقاطعة فرتمبرج ، ولكن الحكومة ما لبثت أن أمرت بإلغائها وتفريقها .

وعندئذ أخذت البارونة تتحول من مكان إلى مكان في أنحاء بادن تبشر بعود السيد المسيح ، وكانت حماستها في بث تعاليمها وهباتها وصدقاتها الجملة تجذب إليها الجماهير من كل فج ؛ وكانت كلما حلت بمكان كثرت حولها المزايم والروايات الخارقة . ثم رحلت إلى جنيف في سنة ١٨١٣ فاجتمع حولها بعض الهائمين المتحمسين ولا سيما هنرى أمبتاز الذى غدا فيما بعد أعظم أنصارها ومعاونيها . وعادت بعد ذلك إلى شتراسبج حيث كان لها بعض الصحب وأنصار ، وهناك انضم إليها داعية يدعى فرايز فون بركايم وهو الذى تزوج فيما بعد من ابنها جوليت .

## ٢

في أواخر سنة ١٨١٤ سافرت البارونة مع ابنتها وأمبتاز معاونها الجديد إلى دن . وشاء القدر أن تكون القيصرة اليزابيث الروسية يومئذ في كالسروه ؛ وكان القيصر إسكندر يعانى منذ حين بعض الاضطرابات النفسية ، ويحاول أن يجد راحة الذهن والروح في ظل الايمان والتعاليم المسيحية . فخطر للقيصرة أن القيصر قد يشفى من نزعاته العصبية ويجد الراحة النفسية المنشودة على يد البارونة فون كريدنر ، خصوصا بعد أن أخفق الراهب شتانج في القيام بهذه المهمة . والواقع أن البارونة كانت تسعى إلى لقاء القيصر ، وقد كتبت إلى حاشيته غير مرة ترجو هذا اللقاء ولكن دون جدوى . ولم تحقق أمنيتها سوى المصادفة المحضة . ففي ربيع سنة ١٨١٥ كانت البارونة تقيم في شليخترن على مقربة من بادن تبث دعوتها بين الفلاحين . وفي الرابع من شهر يونيه نزل القيصر إسكندر وحاشيته في بلدة قريبة تسمى هايلبرون ففي مساء ذلك اليوم التمس البارونة مقابلة القيصر ، وأجيب فوراً إلى طلبها . وكان منظراً عجيباً : كان القيصر وحيدا يلقي نظراته الشاردة على صفحات التوراة ، فلما دخلت البارونة خيل إليه أن مقدها كان استجابة لأمنيته . ولبثت

البارونة معه ثلاث ساعات تعظه وتلقنه تعاليمها ورسالتها بأسلوب عذب وفصاحة مؤثرة، على حين كان القيصر — أعظم ملك في أوربا — يجلس معتمدا رأسه بين يديه، وهو يصعد الزفرات كالطفل المحزون؛ وأخيرا هدأت نفسه وأعلن أنه لقي السلام المنشود.

شعر القيصر إسكندر أن هذه المرأة المؤمنة الهاتمة تغزو نفسه المضطربة بقوة عجيبة فقربها، وأسبغ عليها عطفه وحماته، وتبعته البارونة إلى هيدلبرج نزولا على رغبته، ثم سار إلى باريس والبارونة في ركبه. وكانت موقعة واترلو قد توجت يومئذ نضال الأمم المتحالفة ضد ناپليون وسحق الإمبراطور وسحق جيشه الذي لبث خمسة عشر عاما أداة الطغيان والاعتداء على حريات الأمم الأوروبية. واحتل الحلفاء باريس، ونزل القيصر مع حاشيته في قصر الإليزيه ونزلت البارونة في فندق مونشي المجاور للقصر، وكان يصل بينهما باب خفي. وكان القيصر يذهب كل مساء ليشهد الصلاة التي تقيمها البارونة ومعاونها أمتياز. وكانت نظرية البعث (عود المسيح) قد ذاعت يومئذ وشقت طريقها بعد الكافة إلى قصور أوربا وحكوماتها. ووضحت البارونة فون كريدنر زعيمة هذه الدعوة إلى جانب نفوذها الزوحي، قوة سياسية يعتد بها. وكان يهرع إلى اجتماعاتها مذحلت بياريس صفوة من أكابر المفكرين والسادة مثل شاتوبريان وبنجمان كونستان ومدام ركاميه والدوقة بوربون ومدام دي دوراس وغيرهم، هذا عدا جمهور من المؤمنين الذين خلبتهم دعوة البارونة ونبوءاتها. في هذا المعترك الفياض بالخلفاء والهيام الديني نشأت فكرة « المعاهدة المقدسة » وهي أغرب وثيقة دولية عرفت في العصر الحديث. ولم تمض أسابيع قلائل حتى فضجت الفكرة ووضعت المعاهدة، ووقعها القيصر، وفرانز الأول إمبراطور النمسا، وفردريك وهلم ملك بروسيا. وفي يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ أعلن القيصر نصوص « المعاهدة المقدسة » في حفل عسكري من جنود الحلفاء أقيم بميدان فرني على مقربة من باريس.

وتبدو هذه المعاهدة الغريبة سواء بديابجتها أو نصوصها كأنها وثيقة كنسية محضة لا وثيقة دولية. فقد سميت « بالمعاهدة المقدسة » وقد بدأت بهذه العبارة: « باسم التثليث الرفيع الذي لا ينقسم » واستهلها الموقعون عليها بالإشارة إلى البركات التي شاءت العناية الإلهية أن تغدقها على دولهم وإلى

اقتناعهم « بوجوب تسوية الخطوات التي تتخذها الدول لتنظيم علاقتها المتبادلة وفقا للحقائق السامية التي دعا إليها السيد المسيح »، وأنهم يعلنون عزمهم الثابت على إدارة دولهم وتنظيم علاقتهم مع الحكومات الأخرى وفقا لتعاليم الدين المقدس ، أعنى مبادئ العدالة والصدقة المسيحية والسلام .

وقد صيغت مواد المعاهدة الثلاث بهذه الصيغة الدينية ، فنصت الأولى على أن يبقى الملوك الثلاثة مرتبطين برباط الأخوة الذي لا ينقسم ، وأن يتبادلوا المساعدة ، وأن يعتبروا أنفسهم نحو شعوبهم وجيوشهم كأباء أبرار ويقودونهم بنفس الروح الأخوية لحماية الدين والسلام والعدالة . ونصت الثانية على « أن الملوك الثلاثة يعتبرون أن العناية الإلهية قد بعثتهم ليحكموا ثلاث شعب من أسرة واحدة ، وأن العالم المسيحي الذي يكونون جزءا منه ليس له سيد سوى « الله » وهو وحده القوى القادر ، وفيه تجتمع كنوز المحبة والعلم والحكمة » . وأما الثالثة فقد نصت على دعوة جميع الدول التي تؤمن بهذه المبادئ إلى الانضمام إلى هذه المعاهدة المقدسة .

تلك نصوص المعاهدة الغربية التي تمخضت عن نزعات القيصر الدينية . وتجمع الروايات على أن البارونة فون كريدنر كانت مصدر الإلهام والوحى في إعدادها وعقدتها . بل تقول لنا البارونة إنها هي صاحبة الفكرة كلها ، وإن القيصر عرض عليها مشروع المعاهدة لإقرار نصوصه ، وهذا ما ترجحه كل الدلائل والروايات . وقد استاء القيصر فيما بعد ، حينما استرد رشده وصوابه ، من خفة البارونة وأحاديثها حول المعاهدة ، وأثمى باللائمة عليها ، وأخذ يفظن شيئا فشيئا لما يحيط به من ضروب الشعوذة والدجل ، وأخذ نفوذ البارونة يتقلص تباعا ، وأخذ القيصر يتبرم بعلاقتها ، ويشعر بما يحيط بها من سخرية لاذعة . وبالرغم من أنه أذن قبل رحيله من باريس للبارونة بجواز سفر إلى روسيا ، فإنه لم يعجل باستدعائها . وسافرت البارونة إلى سويسرا في أوائل أكتوبر في طريقها إلى روسيا ، وبقيت هناك تنتظر دعوة القيصر ، بيد أنها لم تراه مرة أخرى .

وقد كان لإذاعة المعاهدة المقدسة وقع عميق في أوروبا ، وقد وقعها الملوك الثلاثة في البداية ، وكان القيصر إسكندر تحذوه الحماسة الإنجليزية ، ولكن قيصر النمسا ، وملك بروسيا وافقا عليها دون حماسة ، ووصفها مترنخ وذير

خارجية النمسا بأنها « شئاً طناناً لا قيمة له ». ووصفها كاسلريغ وزير خارجيه انجلترا بأنها « قطعة من التصوف السامى والسخف ». ولم توقع انجلترا المعاهدة ولكن وصى المملكة بعث بكتاب أعلن فيه موافقته على المبادئ التى قامت عليها ، ثم وقعت دول أوروبا بعد ذلك تباعاً عدا السلطان والبابا . ولبثت الأمم الأوربية مدى حين ترى فى المعاهدة المقدسة بالرغم من صيغتها المسيحية أداة رجعية تقمع الحركات التحريرية ، وتعاون الملوك الثلاثة على تأييد النظم الطاغية .

## ع

استقرت البارونة فى سويسرا مدى حين ، وهناك وقعت تحت تأثير مشعوذ جديد يدعى كلنر ، وأخذت تطوف معه من مكان إلى مكان وهو يبشر بدعوتها ويدعو الناس إلى اتباعها . وكان يتبعها أينما سارت رهط من المتشردين والمتسولين تغدق عليهم من الأموال التى تجمعها باسم الدعوة . وكانت السلطات السويسرية تنظر إلى هذا التجوال بعين السخط ، وتخرجها من الولايات تباعاً ، حتى اضطرت آخر الأمر أن تغادر سويسرا مع كلنر وبعض المؤمنين إلى موطنها ليثونيا وذلك فى سنة ١٨١٧ .

وفى سنة ١٨٢٠ ذهبت البارونة إلى بطرسبرج . وجاءت الأنباء يومئذ عن قيام حركة الزعيم ايسلانتى فى المجر وزحفه على الولايات التركية الدانوبية ، فعندئذ أعلنت البارونة فى الحال رسالة القيصر الإلهية فى أن يقوم بحماية النصرانية وتأييد زعمائها . ولكن القيصر لم يحفل بهذه الحركة ، ولم يخطر له أن يعلن حرباً مقدسة ، وكان قد تحرر نهائياً من نفوذ البارونة ، وأخذ يتأثر بنصائح مترنيخ ، وردت على البارونة بخطاب يفيض رقة وأدباً ، ولكن يطلب إليها فيه أن تغادر بطرسبرج فوراً .

وكانت هذه الضربة مؤلة للبارونة ، وكانت عندئذ تدنو من عامها الستين وتذبل صحتها تباعاً من جراء التجوال المستمر ، والاضطرابات النفسية العنيفة ، وكان القيصر قد سمح لدعاة البعث بإنشاء مستعمرة لهم فى إحدى بلاد القرم ، فقصدت البارونة إلى القرم بالرغم من اعتلال صحتها لتزور صحتها المؤمنين ، وهناك وافاها القدر المحتوم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٢٥ .

